

نازك الملائكة من أشواق القلب إلى تجليات الروح وديان «يغير ألوانه البحر»

منذ أواخر الأربعينيات وصوت نازك الملائكة الشعري يشع بعبير الرومانسية الجديدة التي تميل إلى التمرد على الشكل الحتمي للقصيدة التقليدية، ولكنها تكبح جماحها لتظل حركة التجديد متواصلة في أساسها الإيقاعي مع سياق الشعر العربي عبر تاريخه الطويل ولهذا نرى التوازي في إبداع الشاعرة العراقية نازك الملائكة بين الجانب الخلاق في ميدان الشعر والجانب المعتدل في ميدان التنظير النقدي للشعر الحديث. وسوف نحى من البداية جانبا الدور الريادي للشاعرة والذي تطاحن حوله النقاد والدارسون وبعضهم يرى أن قصيدتها «الكوليرا» ١٩٤٧م كانت فاتحة عصر الشعر الحديث وبعضهم يضع لواء الريادة في يد السياب من أجل قصيدته.. «هل كان حبا» ١٩٤٧م وآخرون يعودون بالتجربة كلها إلى محاولات آخرين مثل باكثير وفريد أبو حديد ولويس عوض وغيرهم. ولكن هذه قضايا خلافية لا تؤثر كثيرا في ميدان رصد الظواهر الأدبية وحركات التجديد المعاصرة.. وتبقى أمامنا التجربة الإبداعية والنقدية للشاعرة العراقية نازك الملائكة متمثلة في دواوينها الشعرية «عاشقة الليل» ١٩٤٧م و«شظايا ورماد» ١٩٤٩م «قرارة الموجة» ١٩٥٧م و«شجرة القمر» ١٩٦٥م و«مأساة الحياة وأغنية الإنسان» ١٩٦٨م و«يغير ألوانه البحر» ١٩٧٧م - ودراساتها: قضايا الشعر المعاصر ١٩٦٢م - شعر على محمود طه ١٩٦٥م - التجزئية في المجتمع العربي ١٩٧٢م -، وقد ظلت الشاعرة

تراوح منذ تجربتها الشعرية الأولى بين ألوان من الرومانسية ونزوع إلى الرمزية مع تراسل واضح فى عمق الحركة الشعرية مع التيار الكلاسيكى المتأثر بظلال أبولو والشعر الرومانتيكى الإنجليزى وتتضح هذه الرؤية على وجه التحديد فى دواوينها الثلاثة الأولى (عاشقة الليل - شظايا ورماد - قرارة الموجة) غير أن الشاعرة - التى تنهل من ثقافة أجنبية لا تتاح إلا للصفوة من الكتاب وثقافة أدبية عربية لا تتاح إلا لعتاة التراثيين - قد حاولت أن تجعل التوازن الفنى رائدها تجاه شعر يعتبر فى مجمله برهانا أكيدا على مشروعية التجديد لانبثاقه من تراثه ولأصالة المجددين وإخلاصهم لأدبهم وانتمائهم الصادق لتراثهم الشعرى وهى مرحلة كانت ضرورية إبان المراحل الأولى للشعر الحديث الذى اكتسح المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية. ويأتى ديوانها «يغير ألوانه البحر» ليمثل نقلة واسعة من حيث الرؤية الداخلية للعالم والبنية الفنية على السواء. فقد أصبحت رؤية الشاعرة للعالم نابضة بالصفاء معتمدة على بلاغة الصورة الفنية التى ترتوى من تفاعلات الطبيعة وظواهرها. صور توحى لك بتوالد النبات وحركته المعقدة البسيطة فى الوقت نفسه. لقد انتقلت الشاعرة بتجربتها من أشواق القلب إلى تجليات الروح حيث يفتقر الحب الإنسانى إلى النضرة الأولى وتتراجع نار الشهوات ليصبح الضوء نابعا من الذات الإلهية وحدها قصيدة «سابل النار» حيث تصور النار كمرادف للحب :

ومثل الحب. هذى النار ألسنة مراوغة فلا تلمس
غمائم من لهيب سائل. زورق شوق أصفر الصارى
ونهر تائر الأمواج مجنون فلا يحبس

وزوبعة تضح وحرز منشار

فيا نارى أيانارى.

غرامى الجامح الأرضى يشبه وجهك الأصفر.

وفى هذه القصيدة تصور الحب المراهق بالحب الترابى ولكنها تنتقل من مرحلة الحب المراهق إلى حب الوطن إلى حب الله تقول الشاعرة: «ذات شتاء أثمرت النار فاشتعل الحب ثلاث دوائر واصفرت معه النار ثم احمرت ثم صارت بيضاء تحرق عيني من يحدق فيها»، وتقودنا هذه النار إلى الملمح الرمزي الذى يغلف الديوان كله ويسرى فى عروق سطروره ينبض فى صورهِ ويشمل بناء كل قصيدة فيه. لقد تحررت الشاعرة من رتابة وتكرار اللحظة العاطفية الغنائية التى سادت دواوينها السابقة لتدخل مرحلة جديدة تتمثل فى هذا البناء المتعدد الطبقات والذى يوحي فى كل طبقة ببعد إنسانى وتاريخى وميتافيزيقى كما حدث فى قصيدتها «يغير ألوانه البحر». وفى هذه القصائد تلج الشاعرة على جعل البحر مرتكزا لتجربتها الشعرية ولكننا ونحن نسبح فى غفلة التوهم بأن هذا البحر مجرد كائن باهر يتوسط الأرض ويتخللها نكتشف أن الشاعرة تراوغنا فتجعل من هذا البحر سرا ذائعا له ملامح بحار كثيرة، فهذا البحر يشى بالحب المحترم بين قلبين منفعلين.

سألت عن البحر هل تتغير ألوانه؟

وهل تتلون أواجهه؟ هل ترى تتبدل شطآنه؟

نعم يا حبيبى

وبحر يلاطم وديان نفسى

ويرحل عبر موانئ لون وشمس
وعبر حقول مغيب
ويغتسل الغسق القمري بأواجه ويبلل شعره
ويلقى إليه سماء وفكره
نعم يا حبيبي نعم يلون خلجانه
نعم ويغير ألوانه
فيشرب صفرة شكى وطنى
ويصبح أزرق فى لون لحنى
وتبحر فى شذر أوجاه أغنياتى وسفنى
ويصبح أبيض تصيح لجته ياسمينه
ويصبح أخضر مثل اخضرار العيون الحزينة
ومثل زبرجد نهر النهاوند فى قعر حزنى

نحن أمام هذه الصورة المتدفقة تتدافع فى حنان وشوق نلمس وجه
الحب الإنسانى فى ظواهره وملامحه وانفعالاته الجامحة الرائعة وفى
أنغامه العميقة التى تولد النشوة ولكن الشاعرة لا تلبث أن تنقلنا إلى
بحر آخر له مذاق التاريخ أو صورة الزمن حين تقول:

حبيبي لقد كان لى فى الطفولة جد
طويل كمثلى جدائل شعر ربيع وريف
وكان لجدى عمق وظل وبعد
له عنف عاصفة فى خريف
وكان مدى فى بحار مطلسمه لا تحد
وجدى كان قويا كموجة بحر مخيف

وترشح البراهين الفنية الواردة فى تضاعيف صور القصيدة بأننا أمام بحر آخر له ملامح مجردة يصل بنا إلى آفاق ميتافيزيقية حين تدخل متاهة ألغازها الشعرية فيختلط الواقع المادى بالأحلام الرمزية بأشواقها الصوفية حين تقول :

عن اللون والبحر تسألنى يا حبيبى
وأنت بحارى
ومرجانتى ومحارى
ووجهك دارى
فخذ زورقى فوق موجة شوق مغلقة خافية
إلى شاطئ مبهم مستحيل
فلا فيه سهل ولا رابية
إلى غسق قمرى المدار

ويتضح البعد الصوفى للقصيدة حين تقول :

هنالك لا طول للظل فى حلمنا لا قصر
ولا دفتر للقدر
ولا شىء يمكن أن يرتقيه النظر
سوى موج أغنية تتحرر عبر جبال القمر

هذه هى الأبعاد الرمزية الثلاثة التى تتراوح بينها تجربة الشاعرة نازك الملائكة فى ديوانها «يغير ألوانه البحر» البعد الإنسانى فى ملامحه الواقعية والرومانسية والبعد القومى والتاريخى ثم البعد الصوفى. وإذا كانت قصيدة «سنابل النار» تصح دليلاً للديوان من حيث الرؤية

الداخلية للعالم التي تجسدها معظم القصائد فإن التطبيق الفني يلوح في قصيدة «زنايق صوفية للرسول» حيث يعود البحر للظهور مرة أخرى متخذاً مظهرًا يتجاوز الدلالات المادية ويحلق بنا في آفاق صافية لروح هائمة بحب الرسول الكريم.

وجه حبيبي أكبر من لا نهاية البحر، من مداهُ
يسد أقطاره الزرق،
يطوى طيوره، موجه، رؤاهُ

ثم لا تلبث الشاعرة أن تجرد عاطفتها وأشواقها الروحية لتصنع لنا طائراً رمزياً يحمل كل الدلالات الصوفية.

وجاءنى طائر جميل وحط قربي
وامتص قلبي
صب على لهفتي السكينة
ورش هدي
براءة، رقة، ليونة
وقلت يا طائري، يا زبرجد
من أين أقبلت، أي نجم أعطاك لينه؟
يا نكهة البرتقال يا عطر ياسمينه
وما اسمك الحلو: قال أحمد

وإذا كان الرمز يتخلل ثنايا القصائد ويتجول بين صور الكائنات مثل البحر والطير والنار فإن الشاعرة تستلهم التراث الديني في قصيدة «الماء والبارود»، حيث كتبت تقول:

من ذكريات حرب رمضان و«أكتوبر» سمعت الشاعرة أن فرقة من الجيش المصرى فى سينا كان أفرادها صائمين وحن موعد الإفطار وقد نفذ الماء عندهم فراحوا يتضرعون إلى الله فجاءت طائرات إسرائيلية وقصفت المعسكر فتفجر الماء من الأرض حيث كانت مواسير المياه التى أقامها اليهود مدفونة، وفى هذه القصيدة تستوحى الشاعرة قصة إسماعيل عليه السلام ولهفة أمه هاجر حتى تدفق الماء تحت قدميه. والشاعرة تقيم نوعاً من التوازي بين الواقع والتراث الدينى والتاريخى فى قصيدة «الماء والبارود» فتتخذ القصيدة نفساً ملحمياً جديداً على منهج الشاعرة الفنى. وتتجلى القدرة الشعرية الأساسية فى هذا الديوان - إلى جانب الرموز الدالة على ألوان الطيف الكثيرة - من المعانى والتجارب والمشاعر وتتجلى قدرة الشاعرة نازك الملائكة فى صياغة الصورة الشعرية النابضة بالحياة والحياة وهى تصف ميلاد قصيدتها فتقول:

وتولد عندى القصيدة

كمولد فينوس من زبد البحر طافية مثل وردة

جدائلها أشطر عائمات

وأهدابها من حروف ومن كلمات

يوسدها الليل أهدابه، وهواه، وسهده

ويمنحها زبد البحر خده

إن الثراء الفنى المتنوع فى ديوان «يغير ألوانه البحر» للشاعرة العراقية نازك الملائكة يمثل هذا التطور الأصيل الذى يتألاً بالجمال والجلال معاً فى دراية واعية بصناعة الشعر وتحولات الروح بالواقع

بأبعاده التاريخية والحلم بأبعاده الميتافيزيقية والصوفية. والديوان -
يعد - إضافة لتراث الشاعرة المبدعة وتراث حركة الشعر الحديث كله
وبرهان فنى ناصع على مشروعية التجديد وضرورته.

